

فلتفرحوا قليلاً ولتبكوا كثيراً

حسام عبد العزيز

هكذا نُساق نحن العرب دوماً إلى مصائر أرادها لنا الآخرون. ما أشبه الليلة بالبارحة. في أيام ليست بعيدة في عمر البشرية، كنا نحتفل بسقوط الطاغية بورقيبة. هللنا وكبرنا لرحيل فاروق قبل ذلك بسنوات ليست قليلة.

رقصنا فرحاً بثورات ليبيا واليمن. حلمنا بالديمقراطية وتجرعنا حقيقة مفادها أن الفوضى تأتي دوماً بفوضويين ومستبدين جدد.

في تونس، أتى بورقيبة إلى سدة الحكم زعيماً وطنياً وبعد سنوات جاء زين العابدين بن علي وأمسى المناضل والمجاهد التونسي بورقيبة طاغية في اليوم التالي، وتذكر الشعب التونسي فجأة جرائمه التي كان أشهرها نزع الحجاب من رؤوس التونسيات.

وفي ليبيا، خطف القذافي السلطة بانقلاب على الملك محمد إدريس السنوسي الذي وصل عقب الاحتلال الإيطالي واستقبله الليبيون استقبال الفاتحين. تولى القذافي مقاليد ليبيا وأجلى القواعد الأمريكية والإنجليزية عن ليبيا وأصدر قانوناً يمنع تناول الخمر وطبق فريضة الزكاة فصنع منه الليبيون رمزاً ثم ثاروا عليه بعد عقود طويلة لتطفو فجأة على السطح جرائمه من إنكار الشفاعة والعبث بالقرآن والسنة.

وفي اليمن أصبح علي عبد الله صالح بطلاً موحداً لشطري اليمن وعاش شعبه عقوداً دون أي نية للتمرد حتى تذكر اليمنيون بعد 33 عاماً أنهم لا يعيشون في ديمقراطية، تماماً كما تذكر البرادعي فجأة أن مصر تعيش عقوداً من الفساد رغم أنه قبل سنوات قليلة وليست عقود انحنى أمام الفاسد المخلوع ليتقلد قلادة النيل.

وبين عشية وضحاها، تحول فاروق في مصر من ملك لم يتجرع الخمر قط، محب لبلده عاشق لفلسطين، ملك لمصر والسودان معاً، دائن لبريطانيا العظمى بالمليارات. القاهرة في عهده هي المدينة الأجمل في العالم، والإيطاليون واليونانيون يعملون في مصر حلاقين وجرسونات. تحول فاروق إلى زير نساء ومنبطح وفساد وغارق في اللذات وطاغية، وجاء الضباط الأحرار بجمال

عبد الناصر الذي كان مجهولاً لدى رجل الشارع المصري قبل ساعات من اندلاع انقلاب أو ثورة يوليو 1952.

وضعت الثورة مبادئها التي فشلت في تحقيق أغلبها فأهين الجيش المصري في حرب 1967 على يد إسرائيل وضاع السودان وانتشرت فضائح مراكز القوى كصلاح نصر وغيره. وحدث ما لم يحدث في عهد فاروق نفسه من أهوال. تحولت العدالة الاجتماعية إلى سرقة على طريقة أرسين لوبين. ومثلما طمست الثورة تاريخ أسرة محمد علي طمس الراحل جمال عبد الناصر تاريخ أول رئيس للجمهورية محمد نجيب وحرمه حتى من أن تذكره الكتب المدرسية. منذ ذلك اليوم وصار كل شيء إلى سقوط.

صدقوني لست حزيناً على المخلوعين ولا أنكر سعادتي بمقتل القذافي. ولكن تزامن الثورات العربية بهذا الترتيب في ظل وجود حركات داخلية مريبة كـ 6 أبريل يثير اندهاشي كما أثار اندهاش المحللين الغربيين الذين يرفضون فكرة أن الشعوب استغفقت فجأة، وإلا فكيف لم تهتز ملكيات في المنطقة هي شر مكاناً وأكثر فساداً! وهو ما يثر التساؤل التالي: هل جرائم الطغاة هي التي تحرك الثورة أم أنها المبرر لاستمرار الثورة التي تنزع فتيلها جهات أخرى بعمليات القنص؟ حتى العلماء يصمتون حتى إذا اندلعت الثورة خرجت الفتاوى التي تستدعي جرائمه وتبيح دمه بوصفه كافراً زنديقاً. حتى الصحافة الغربية المستقلة لا تستيبح الحديث عن ثروات الطغاة وسرقاتهم إلا بعد ثورة شعوبهم.

قدرنا أن نقع بين مطرقة الطاغية وسندان المستعمر وهما خياران أحلاهما مر. سعيد بزوال الطغاة لكنني حزين بأن نكتشف طغيانهم بعد عشرات السنين فنلعب دوراً في مسرحية هزلية تدار من الخارج. سعيد بالتغيير ولكن بالتغيير المتعقل غير الهمجي. تغيير يفيد شعوبنا ولا يغرقنا في مزيد من الفقر. تغيير لا يدفعنا قسراً للتنازل عن نفطنا. تغيير ينبع من إرادة شعبية حرة وموحدة. إرادة لا تتحد فقط على خلع الحاكم بل تستمر لتتحد على طريقة بناء الدولة الجديدة.

من جديد، يبدو لي النموذج النبوي للتغيير هو الأجمع، فالتغيير من القمة ينطوي على جحود للحقيقة القائلة: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. التغيير من القاعدة هو الحل. سمها تنويراً إذا كنت مثقفاً أو الدعوة إذا كنت إسلامياً لكن ضعها في الاعتبار.

هل ترغبون في مثال لغوغائيتنا؟ خرجت الأصوات الراضية لطريقة قتل القذافي. إنها نفس الأصوات التي طالبت بإعدام مبارك ثورياً أو تركه لثوار التحرير ينكلون به كيفما شاءوا. نفاق جلي، وكلنا هؤلاء المنافقون. نمسك باللص فنوسعه ضرباً وتنكياً قبل أن نسلمه للشرطة. ناشد الشرطة أن تعيد لنا أموالنا القليلة المنهوبة ولو تطلب الأمر هتك عرض السارق.

تعليقاتنا على المواقع الإخبارية شاهدة علينا ونحن نشي على أب قام بتعذيب شاب تزوج بابنته عرفياً أو ثوار علقوا بلطجياً على شجرة وأخذوا يضربونه لساعات كي يخبر عمن أرسله. كفانا نفاقاً!

لقد كشفت الأشهر القليلة الماضية عورة مجتمعنا. تيارات متصارعة إسلامية وليبرالية. مجتمع هش من السهل إثارة الفتنة فيه بتصرف فردي أهوج. إن اتهام الفلول أو عناصر خارجية وحدهما - وأنا لا أنكر دورهما - لا يمكن أن نصفه سوى بـ"دفن الرؤوس في الرمال".

في ليبيا واليمن الآن قبائل وعشائر وفي تونس إسلاميون وعلمانيون وفي مصر فلول وليبراليين وسلفيين وإخوان وأغلبية صامته وثور وشعب الكنيسة. إذا أخلصنا النية في البحث ربما نتعثر بتجربة مشابهة في العراق وهذا ما ينذر بمصير مماثل. وما الناتو عن بلادنا بعيد.

الغنيمة بدأ تقسيمها فعلاً بإعلان وزير الدفاع الفرنسي جيرار لونغيه في حديث نشرته صحيفة لوموند اليوم الجمعة أن فرنسا تنوي لعب دور "شريك أساسي" في ليبيا التي يعلم قادتها الجدد أنهم "مدينون لها كثيراً".

ويفسر هذا تصريح رئيس المجلس الانتقالي الليبي مصطفى عبدالجليل في وقت سابق والذي قال فيه إن كل من ساعدت ليبيا سيكون له الأولوية في جميع الميادين، لا في قطاع الطاقة والنفط فحسب".

ويحذر تقرير لشبكة "بي بي سي" البريطانية من أن مقتل القذافي قد يكون خلص العالم من طاغية، لكنه يجب ألا ينظر إليه كعلامة فارقة في الربيع العربي، فرحيل "ديكتاتور ليبيا" لن يؤدي بشكل سحري إلى حكومة مستقرة.

أما تونس فبدأ أنها دفعت الثمن فعلاً بالموافقة على إنشاء قاعدة عسكرية فرنسية على أراضيها.

انظروا ما آلت له الأمور ويا ليتها النهاية. العراق بلا جيش والسودان ممزق وقاعدة إسرائيلية بجنوبه وشمال أفريقيا يعج بالفوضى التي ستأكل الصديق قبل العدو والخليج العربي صار مسرحاً للقواعد العسكرية الأجنبية في الإمارات والسعودية وقطر والكويت والعراق.

إن ما تفعله الثورات العربية أشبه بالبر الذي يحفظ على المصاب حياته لكنه يتركه عالاً على غيره ليموت ألف مرة إذا لم يتحل بالإيمان الكاف.

اقرأ المقال الأصلي علي بوابة الوفد الإلكتروني

